صراع بين رسالتين

كان بنو إسرائيل أول أمرهم ممثلين لعقيدة التوحيد وسط شعوب قلما تعرف حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر.

والانفراد بعقيدة صحيحة بين أمم ضالة يتطلب غير قليل من العناء والمصابرة، فقد يسأم الإنسان تكاليف الغربة الروحية، وقد يبتلى بمن يضيق به وبعقيدته ويحاول فتنته عنها..!

ومن هنا رأينا يعقوب يجمع أبناءه قبيل موته، ويريد أن يطمئن على سيرتهم بعد أن يغادر الحياة، ترى أيظلون على الإيمان الذى شرفوا به أم يتبعون غيرهم على الشرك والفساد؟؟

﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وكلمة الإسلام قديما وحديثا هى العنوان الفذ للدين الأثير عند الله، بما يتضمنه هذا الدين من توحيد للخالق، واستقامة على أمره، وإنفاذ لوصاياه، وإقامة لأحكامه...

وقد كان يوسف الصديق أشرف رجال هذه الأسرة، وأصلح أولاد يعقوب وارعاهم لتعاليم أبيه فى حياته وبعد مماته.

وكان يقدر نعمة الاختيار الإلهى لبيت يعقوب كى يحرس التوحيد ويرفع لواءه..

ولذلك رأيناه فى السجن ينتهز الفرص فيدعو المسجونين إلى الله، وينفرهم من الوثنية، ويشرح لهم معالم الإيمان الحق..

وكان السجناء قد لحظوا قدرته على استباط الغيوب من خلال تعبير الرؤيا، فقال لهم يوسف: ﴿ **ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا**

أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧، ٣٨].

ويوسف بهذه الكلمات ينوه بمكانة أسرته، ووظيفتها الرفيعة فى قيادة الناس إلى الله الواحد، ونبذ الوثنية السائدة على عهده.

ولذلك يتابع نصحه لرفقاء السجن قائلا: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٩، ٤٠].

ومن الإنصاف أن نقول: إن أبناء يعقوب فى تاريخهم المتقدم وفوا بعهدهم لأبيهم، وقاوموا أمواج الوثنية التى حاولت أن تجرفهم، ولعلهم تحملوا فى ذلك آلاما رهيبة.

وأى آلام أبشع من تذبيح الأبناء واستحياء النساء؟ لكنهم مع تلك المحن لم يفقدوا شخصيتهم، ولم يذوبوا فى غيرهم، ولم ينسوا أصل رسالتهم.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم عنهم ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان : ٣٢، ٣٣].

لكن بنى إسرائيل مع سير الزمان واختلاف الليل والنهار أخذوا يبددون أمجادهم، ويغاضبون ربهم، ويتنكرون لمواريثهم، ولم ينشأ هذا الانحراف من غلبة عدو عليهم وتأثيره فيهم، بل نشأ من اعتزازهم بالله، وجراءتهم عليه، وابتذالهم لنعمه.. وأضحوا كالولد المدلل لا ينتظر منه أدب، ولا تثمر فى تقويمه عظة.

وتطرق هذا العوج إلى المبادئ التى اختيروا لإعلاء منارها وتمهيد سبلها؛ فإذا هم يخلطون التوحيد بالشرك، ويذهلون ذهولا مطلقا عن اليوم الآخر، ويرتكبون المعاصى دون حذر، وينسون قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وينطلقون على ظهر الأرض ما تسيرهم إلا غرائزهم الدنيا مقترنة بدعاوى عريضة ومزاعم مكذوبة.

فكانوا بهذا المسلك الجديد شرا من الأمم التى كلفوا قديما بتعليمها وتأديبها وفضلوا تفضيلا عليها..!!

ومن رحمة الله بعباده أنه يقيل عثراتهم، ويغفر زلاتهم، ولا يؤاخذهم لأول ما يفرط منهم، وقد أمهل بنى إسرائيل طويلا كيما يثوبوا لرشدهم ويعتذروا عن أخطائهم، وبعث فيهم أنبياء كثيرين يذكرونهم بالله ويخوفونهم نقمته..

لكن القوم لم يرعووا ويدعوا ما هم فيه، بل تأدت بهم الشراسة الجامحة أن يعدوا على أنبياء الله فيقتلوا من ضاقوا بنصحه منهم ﴿**لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ٧٠، ٧١].

وكان آخر اختبار سقطوا فيه موقفهم من عيسى ابن مريم، فقد جاءهم هذا الإنسان الصالح يبغى ترقيق قلوبهم وتهذيب طباعهم وإلزامهم حدود الله وتعاليم الوحى الأعلى وأعتناق حقيقة الدين بدل الاستمساك بقشوره والخروج على جوهره..

ولكنهم سخروا منه أقبح سخرية، ورموه وأمه بأغلظ الإفك، ثم ابتغوا قتله كشأنهم مع من سبقه، بيد أن الله نجاه منهم ووقاه شرهم...

وكان هذا كما قلنا آخر اختبار لبنى إسرائيل، فقد كانت النبوات وقفا عليهم، وهدايات السماء تنبعث من أرضهم.

وطالما سطعت أشعة الوحى ساحات المسجد الأقصى على أيدى رسل كرام، غير أن هذه الأشعة ضاعت بين غيوم كثيفة من الشهوات.. ومحا أثرها شعب عز على العلاج بعد أن تغلغل الفساد الخلقى والاجتماعى فى أعماقه..

وقررت العناية العليا أن تنقل قيادة الإنسانية من جنس إلى جنس، أو من أولاد إسرائيل إلى أولاد إسماعيل، أو من اليهود إلى العرب..

كان عيسى ابن مريم آخر إسرائيلى يرسل إلى قومه، وكان تكذيبهم له آخر جرم يختم به تاريخهم الدينى..!

ثم يجئ دور العرب بعدئذ ليفتتحوا صفحة جديدة فى الحياة، بعد ما ملأ اليهود الصفحات السابقة بمخازيهم ومآسيهم: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الصف: ٦، ٧]

* * *

وفى تسويغ هذا الانتقال الحاسم، وسرد أسبابه وملابساته، وفى تعريف العرب بمكانتهم الإنسانية الجديدة، ودورهم القيادى الخطير، وفى تقرير الواجبات الثقيلة التى تفرضها هذه الرسالة العظمى على العرب..

فى هذا كله نزلت آيات شتى نريد أن نتدبرها ونتدارس دلالاتها وأبعادها.. يقول الله لنا – نحن العرب –: ﴿ **لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠]

ويقول للنبى الخاتم: ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾ [الزخرف: ٤٤]

ويقول عن منازل الناس فى خدمة هذه الرسالة والوفاء لها: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴾ [فاطر: ٣٢].

وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم بين الله للعرب لماذا ملكهم زمام الوحى بعد أن انتزعه من اليهود، وكيف يتقاضاهم ذلك الإخلاص لله وحراسة رسالته والسهر على أدائها..

فلننظر إلى سورة الجمعة، وكان يوم الجمعة فى الجاهلية يسمى يوم العروبة، حتى غلبت التسمية الشرعية نظرا للصلاة الجامعة التى تحشد الناس فيه..

بدأت هذه السورة بتسبيح الله والثناء عليه بما هو أهله.. ثم شرعت

تتحدث عن العرب، وكيف أختار الله منهم نبيا يربيهم ليربي بهم العالم، ويعلمهم ليعلم بهم الآخرين: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الجمعة: ٢]

نعم كان العرب قبل الإسلام فى جاهلية طامسة وتأخر ظاهر، ثم أحيا الإسلام مواتهم وأعلى ذكرهم ونقلهم بتعاليمه من السفوح إلى القمم ومن ذيل القافلة البشرية إلى طليعتها: ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الجمعة: ٤].

ثم يذكر الله جل شأنه فى هذه السورة: لماذا آثر العرب بهذه المنزلة بعد أن كانت قديما لغيرهم، فيقول: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الجمعة: ٥]

وهذه الآية واضحة فى أن اليهود فقدوا صلاحيتهم لحمل رسالات السماء فقدانا أبديا لأنهم فقدوا القدرة على الانتفاع بالوحى الإلهى، ولم يستطيعوا تهذيب أنفسهم به فكيف يقدرون على تهذيب غيرهم؟

إن صاحب القلب القاسي لا يجدر به أن يحمل عناصر الرحمة لغيره وصاحب الذهن المغلق ليس أهلا لتوعية الآخرين، وفاقد الشئ لا يعطيه..!!

وحامل الكتب الذى لا يدرى ما فيها لا يصلح تلميذا فكيف يكون أستاذًا؟

لهذا صرف الله رسالته عن اليهود إلى العرب لعل الآخرين يحسنون الوصاية عليها والسير بها.

وإن كان اليهود بعد ما رأوا هذا التحول المباغت فى ابتعاث الأنبياء قد استماتوا فى تكذيب الرسالة الجديدة والعدوان على صاحبها فقال الله جل شأنه:

﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ**

﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨، ٩].

وفى مواضع أخرى من القرآن الكريم سجلت هذه المقارنة بين اليهود والعرب تسجيلا يحمل فى أطوائه مسالك يجب أن تدرس وفرائض يجب أن تعرف، لأنها تعرفنا ما وقع من غيرنا، وما ينبغى أن يقع منا..

فى سورة آل عمران وصفنا الله بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لماذا؟ أهو امتياز عنصرى أو تفضيل جغرافى؟ كلا، لا هذا ولا ذاك.

إنما هو لخصائص خلقية وفكرية تنفع الإنسانية جمعاء بعد ما تنفع أصحابها أولا، هذه الخصائص هى قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وهذه الخصائص هى التى فقدها أصحاب الرسالة السابقة فعزلوا عن منصب القيادة العامة للناس. لذلك قال مباشرة: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والأمم تؤاخذ بما يسود كثرتها الكبرى من عوج ورذيلة، ووجود قلة صالحة لا يغنى عنها ولا يجنبها المصير المحتوم..!!

وظاهر من تعبير القرآن الكريم أن قدر الأمة مرتبط بمدى إيمانها وأن سبقها لغيرها، وترجيحها عليه، منوطان بحرصها على فضائلها.

وإلا فسوف يصيبها ما أصاب غيرها.

ومن أخطاء أهل الكتاب الأولين أنهم ظنوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه. وأنهم قادرون على فضله يمنحونه من شاءوا وقادرون على مغفرته يبيعونها صكوكا لمن يدفع الثمن، وهذا كله تطاول بالباطل فإن الأفراد والأمم تعلو إذا قدرت على التحليق، وتهبط إذا فترت منها الهمم، وغلب عليها الكسل.

وليس لأحد قط أن يتدخل فى هذه القوانين الصارمة: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

ولذلك عندما رسم القرآن الكريم الطريق أمام الأمة الجديدة بين أن الله يختار

من يشاء من خلقه ليحمله ما يشاء من أمره، وأن هذا التحميل اختيار مقيد لا اختيار مطلق، فقال جل جلاله: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [الحج: ٧٥، ٧٦]

ثم شرح بعد ذلك الرسالة التي آذن العرب بحملها، والأعباء الشريفة التي تقترن بها فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

وظاهر من هذا السرد التاريخي أنه كان هناك شعب مختار فسد فعزل..!!

وأن هناك شعبا آخر وقع عليه الاختيار، ليبلغ رسالات الله ويضئ الطريق أمام الأحياء.

نعم هناك شعب آخر مكلف أن يتصدر الركب الإنساني المنطلق بحدوه باسم الله، ويعطيه الأسوة الحسنة من تمسكه بهداه..

شعب يتعلم من محمد ثم يعلم الآخرين. ويطبق تعاليمه على نفسه ثم يجعل منها نماذج لغيره: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

تلك هي الحقيقة التي تاه عنها جمهور كثيف من العرب فتخطفته زبانية الأرض، ثم هوت به في مكان سحيق..!!

والصراع الدائر الآن هو بين المطرودين من أصحاب الرسالة الأولى، وبين التائهين من أصحاب الرسالة الخاتمة..

فلنشرح أدوار هذا الصراع، وملابساته المرة..

* * *

إن اليهود الذين كذبوا عيسى منذ عشرين قرنا، وكذبوا بعده محمدا

مضوا فى الطريق التى اختطوها لأنفسهم، وعاشوا فى حدود ما لديهم من تعاليم وما توارثوا من تقاليد وتحملوا غضب الله عليهم بجلادة تثير الدهشة.

إنهم على امتداد الزمان والمكان لم يتخلوا عن رأيهم فى أنفسهم أنهم شعب الله المختار..

ولقد تقاذفتهم الأقطار والفلوات فما نسى بعضهم بعضا ولا تلاشوا فى الأمم التى ضاقت بهم ونظرت إليهم شزراً.

ولما كان النصارى يعتقدون أن اليهود قتلة عيسى وسبب بلائه فإن الأمم النصرانية تقربت إلى الله بإذلال اليهود حيث كانوا، واستباحة دمائهم لأتفه التهم، حتى قيل: لولا ظهور الإسلام لبادت اليهودية من على ظهر الأرض!!

ولم يتورع شعب مسيحى فى طول أوروبا وعرضها عن إلحاق الأذى باليهود جهد ما يستطيع.

ومع هذا كله فإن اليهود شقوا مستقبلهم وسط هذه الصعاب، موقنين أنهم شعب الله المختار، ومؤملين فى مستقبل أفضل، مستقبل يفرضون فيه مشيئتهم على العالم، وتتوج السلطة العليا فيه رأس إسرائيل..

واستطاع علماء بنى إسرائيل وأغنياؤهم أن يملأوا ثغرات واسعة فى علاقة المسيحية بأتباعها، وأن يكملوا قصورها فى تغطية حاجات الخاصة والعامة الأدبية والمادية على السواء.

فما كاد يقبل عصر النهضة مع القرن السادس عشر الميلادى حتى شرع اليهود يبنون لجنسهم دعائم مكينة، وواصلوا البناء فى صمت ومكر حتى أمكنهم خلال القرن العشرين أن يكونوا فى مختلف القوميات الأوروبية والأمريكية طائفة ظاهرة اليسار والارتقاء..

وهنا شرع بنو إسرائيبل يلبون دواعى الحنين فى دمهم لبناء دولتهم الدينية وتحقيق حلمهم القديم فى حكم العالم..

وسنحت الفرصة بسقوط الخلافة الإسلامية، وغيبوبة العرب عن رشدهم، وذهولهم الهائل عن رسالتهم، فضرب اليهود ضربتهم، واحتلوا فلسطين..

وبديهى أن اليهود وحدهم ما كانوا ليقدروا على ما فعلوا .. إن الحقد

المشترك على الإسلام وأمته وجد فى العدوان اليهودى أداة ترضيه، وتنفذ ما يبغيه ولذلك رحب به وأعانه – ولا يزال – على بلوغ أهدافه.

أول أولئك الحاقدين الصليبيون الجدد، فإن الساسة الأمريكيين والأوروبيين المبغضين للإسلام وأمته يرون فى إقامة دولة لليهود على هذه البقعة من أرضنا خطوة لها ما بعدها فى زلزلة الكيان الإسلامى كله..

ومن ثم حرصوا على خذلاننا فى كل ميدان، وتخييب آمالنا فى كل سعى، ولم نر من خمسين سنة – أى منذ بدأ احتلال اليهود لفلسطين – سياسيا مسيحيا يعارض اليهود أو يرثى للعرب المنكوبين..

حتى الجنرال ديجول رئيس حكومة فرنسا الذى يشاع الآن أنه نصير للحق العربى، لم يفكر قط فى أن فلسطين للعرب وأن اليهود مغتصبون لها .. غاية ما صنع أنه – لأمر ما – وقف ضد التوسع اليهودى الحالى. وأيد ما يسمى: «محو آثار العدوان»..!!

أما بقاء إسرائيل فى موقعها المرسوم المحذور فليس موضع جدل.

والواقع أن السلاح الأمريكى والفرنسى والإنجليزى هو الذى سفك دمنا، ونهب حقنا، واستباح وجودنا وتاريخنا، وأنكر حاضرنا ومستقبلنا.

واليهود هم الأداة الطيعة التى اختيرت لتحقيق هذا المأرب..

وإلى جانب الصهيونية والصليبية عملت الشيوعية العالمية عملها فى إقامة إسرائيل، وساندتها فى المجال الدولى مساندة مكشوفة..

ولا ريب أن الشيوعيين يسرهم أن ينقسم العرب قسمين واهيين إثر قيام إسرائيل فى مكانها الموجع الذى تحتله الآن، فإن ضعف الإسلام – بضعف العرب – يساعد على نشر الشيوعية وإزاحة سدود ضخمة من أمامها..

وموقفها الحالى من التوسع اليهودى تمليه ظروف سياسية معقدة..

وسط هذه الفتن والمحن أقبلت اليهودية العالمية تريد استعادة نشاطها الأول، معتقدة أن الإسلام أكذوبة يجب أن تنتهى، وأن أمته خرافة آن أن تزول..

أى أن الهدف المخطط هو إزالة دين، ومحو أمة..!!

وإسرائيل الكبرى تمتد شرقا وغربا من الفرات إلى النيل وتهبط جنوبا حتى تشمل الحجاز، وتستوعب مكة والمدينة.

وحجتهم أنه فى هذه البقاع تجول أسلافهم وانتشروا، وأن الظروف التى شردتهم قد انتهت.

وأن العرب الذين يستوطنون هذه الأرض ليسوا أهلا للبقاء فيها.

وأن المقدسات الإسلامية إنما تستمد مكانتها الروحية من تعلق أصحابها بها وقدرتهم على حمايتها، ولكن محمدا مات وترك بنات..!!

هكذا كانت المظاهرات اليهودية تجأر بالهتاف فى مدينة القدس حيث المسجد الأقصى.

وقد رأيت بعينى صور الجنود اليهود يحملون التوراة فى اليد اليمنى والمسدسات فى اليد اليسرى، وهم على صهوات دباباتهم المنطلقة بهم فى ربوعنا المقفرة، وأرضنا الذليلة الموحشة..

إن الأمانى التى دفنت فى تراب الذل نحو ثلاثين قرنا انتفضت بالحياة بغتة، وجرت معها عداء الصليبية لرسالة التوحيد، وعداء المادية لرسالات السماء، ولوحى الله جملة وتفصيلا، ثم هجمت على العرب المنقسمين على أنفسهم، الزائغين عن رسالتهم، واستطاعت أن تكسو وجوههم بالقار، وأن تملأ ديارهم بالعار.

تلك حال اليهود ومن والاهم فلنلق نظرة عجلى على أكناف الميدان العربى.

* * *

اشتبك العرب مع اليهود ثلاث مرات: سنة ١٩٤٨، سنة ١٩٥٦، سنة ١٩٦٧، وانهزمت دولهم خلال هذه المعارك هزائم شائنة، وكانت كل هزيمة أسوأ من سابقتها وأشد خزيا.

وإذا بقيت الروح الدينية والأساليب الخلقية لدى العرب على المستوى المعهود فى معاركهم السابقة فلن يكسبوا معركة أبدا، بل سيخسرون وجودهم كله، ويذهبون فى خبر كان.

إن اليهود يقاتلون بدفاع من إيمان، ويعملون كما شرحنا آنفا لتحقيق رسالة دينية ومدنية معا.

أما العرب فإن ساستهم خلال خمسين سنة كانوا ينفذون مخططا استعماريا لإبعاد الدين عن آفاق الحياة الخاصة والعامة..!

ويوم يلتقى رجل ملتهب المشاعر بعقيدة ما، مع رجل لم يستنر فؤاده بحقيقة دينه، بل لا يدرى من حقائق هذا الدين قليلا ولا كثيرا، فماذا تكون النتيجة؟ إنها الهزائم المرة التى ذقناها..

إنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يقف أمام معتدين باسم الدين إلا مدافعون باسم الدين..

إن اليهودى يأبى أن يأكل لحم الخنزير مثلا، لأنه محرم فى دينه، ولديه ضمير دينى يمنعه من هذا الطعام بقوة.

أما المسلم الذى أمامه فهو يشرب الخمر المحرمة فى دينه دون ضمير رادع!..

ولست أتهم كل أحد بهذا الإتهام، ولكن عددا من القادة والضباط يشربون الخمر جهرة فى شتى الجيوش العربية.

واليهودى يتعبد يوم السبت، ويصوم الأيام المقررة عنده.

وعندنا لفيف ضخم من الرجال لا يصلون الجمعة ولا يصومون رمضان، بل إن الصلاة متروكة فى بعض الجيوش فى كل الأوقات.

فإذا طوينا هذه الصفحة من المخالفات لأمر الله، فلنلفت النظر قبل طيها إلى أننا لا نبكى لمعاصى فردية تقع من هذا أو ذاك، أو أننا نرد نتائج ضخمة إلى سيئات محدودة.. كلا كلا..

إننا نميط اللثام عن حقيقة مخيفة، وهى أن الدين أبعد إبعادا متعمدا عن ميادين الحرب والسلام جميعا.

وأنه حظر على صوت الإسلام أن يخترق الآذان بالتوجيه الواجب بينما كانت اليهودية تعمل عملها فى جبهة القتال ووراء الجبهة..

فهل نلام إذا تصورنا أن إبعاد الإسلام عن هذه الميادين ليس إلا عملا لحساب إسرائيل، أو لحساب القوى التى تساندها كليا أو جزئيا؟

كل الدلائل تشير إلى صدق هذا الاتهام..

والغريب أن العرب فى تفلتهم من قيود الدين وآدابه ظهرت عليهم أعراض طفولة عقلية ونفسية مزرية، فلم يتصرفوا مع عدو أو صديق تصرف الرجولة

الناضجة، والسيرة الواثقة الجادة، بل على العكس، كانت خططهم الحربية هزيلة وكانت مع هزالها مفضوحة، وكانت خطبهم ذات رنين عال ولهجة مفزعة..

فلما التقى الجمعان تكشف اللقاء عن مهزلة، بل إننا انهزمنا من غير قتال، وانتحرنا دون أن نلحق بخصومنا ضرا يذكر.

والمرتقب من كل عاقل أن يدرس هزيمته، ويحدد عللها حتى يتجنبها مستقبلا .. فهل فعلت الدول العربية ذلك؟ وهل رسمت سياستها التربوية والدعائية والعسكرية على ضوء ما مسها من كروب؟ لم يقع شئ من هذا..

وأذكر أنى كنت أتحدث مع مقاتل شهد معركة الصبحة في الخمسينات فقال لى: والله لقد قاتلنا بشدة وعزم.

فقلت له: لكن اليهود استولوا على الموقع!!

فقال: إننا والله كبدناهم خسائر جسيمة، غير أننا ما كنا نحصد منهم صفا بمدافعنا حتى ينبت مكانه صف آخر وهو يرتل الأناشيد الدينية.

وهززت رأسى عجبا وأنا أسمع هذا الكلام ثم تساءلت بيني وبين نفسي: كم نشيدا دينيا يحفظه شبابنا؟

كم آية قرآنية تغرى بالاستشهاد، أو حكمة نبوية توحى بالثبات والتحمل يعيها ضباطنا وجنودنا، ويرددونها فى ساعات الهول..؟

إذا كانت الحاجة أم الاختراع فالإيمان أبو الاختراع وأمه..

إن المؤمن يؤرقه طلب النصر، ويفتق له وجوه الحيل، ويبصره بأنواع الخدع، ويبعثه على التنقيب فى فجاج الأرض وآفاق السماء، راصدا العدو، مستعدا لمواجهته..

أفذلك ما فعله العرب؟ لا، لأن بناءهم النفسي والاجتماعي لم ينهض على قواعد الإسلام .. ثم اعترتهم الطفولة الفكرية والخلقية التى ذكرناها، فإذا هم ينكرون هزائمهم الثلاث خلال عشرين سنة، ويزعمون أنها، أو بعضها كان انتصارا.

وقد قرأت مقالات شتى تريد لتقنعنا بأن الهزيمة ليست فقدان الأرض، وضياع المعدات، وخسارة الرجال!! لا إن الهزيمة عند هؤلاء شئ آخر لا تعرفه قواميس اللغة ولا مفاهيم الناس، وهكذا.

يقضى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وأحقر ما سمعته فى أعقاب هذه الهزائم تعليل الهزيمة بأى شئ إلا ضعف العقيدة والخلق، وما ينشأ عن ضعف العقيدة والخلق، من فوضى فى وضع الخطط، وترتيب الرجال، ونسيان الله، والحرمان من توفيقه وتأييده.

وضربت كفا على كف وأنا أسمع الرفيق نور الدين الأتاسى يقول: إن سبب الهزيمة هو عدم التطبيق الكامل للاشتراكية!

ويوم يقع قياد العرب فى أيدى ساسة من هذا الطراز فهيهات أن ينجح لهم قصد، أو تعلو لهم راية، ولله فى خلقه شئون.

* * *

وأعرف أن هناك من يعترض تفكيرى هذا ويستنكره، إنه الصنف المسكين الذى تخرج وفق البرامج الدراسية التي خلفها الاستعمار فى بلادنا.

قال لى أحد هؤلاء: تريد حربا دينية؟ إن هذا اللون من الحروب انتهى مع العصور الوسطى، سيروا مع الزمن واطلبوا حربا تحريرية معقولة..!

وقلت لمحدثى: إننى لا أطلب حربا دينية، إنه قد فرضت على حرب دينية أتسمع؟ أن الدولة التي تسمت باسم نبى قديم وألغت كل القوميات الحديثة، وصهرت يهود اليمن مع يهود نيويورك فى أخوة دينية شاملة. وألهبت المشاعر الدينية عند النصارى المؤمنين بالعهد القديم، وحركت ذكرياتهم الصليبية الدفينة ليهجموا على المسلمين معها، هذه الدولة تعلن علينا أى نوع من الحروب أيها الإنسان الذكى؟

حرب أكل وشرب؟

حرب رياضة وتسلية؟

حرب مجد شخصى لملك مغرور؟

إنها حرب دينية فرضت علينا! وما بد من أن نواجهها راضين أو كارهين!

وإقصاء الدين – وهو فى جبهتنا الإسلام – معناه هلاك الأبد.

فقال لى: لكن الحرب الدينية عنوان مثير، وهو يجر علينا متاعب لا نستطيعها!!

فقلت له: إن الحرب الدينية عنوان كريه بالمفهوم الذى تعارف عليه

الغربيون، لأن هذه الحرب فى تفكيرهم وفى تاريخهم كانت تشن لفتنة ناس عن معتقداتهم بقوة السلاح، أو لتغليب مذهب على آخر وإدخال الناس فيه كرها..

وهذا المفهوم السئ للحروب الدينية لا نعرفه فى ماضينا ولا فى حاضرنا، ومع هذا كله فلماذا يوصف دفاعنا عن ديننا وأرضنا وتاريخنا ومقدساتنا بأنه حرب دينية رجعية؟؟

ولماذا سكتت أبواق الدعاية الغربية والشرقية عن هجوم إسرائيل علينا، ووجهها الدينى ليس موضع جدال.

هل يباح لليهودية أن تعلن حربا علينا دينية، ولا يباح للإسلام ذلك؟ وهو يدافع وهى تهجم؟

أم أن القضاء على الإسلام هدف مشروع؟ وصياح أهله وهم يدفعون عنه عمل مستهجن؟؟

لقد أفلح الاستعمار فى خلق جيل يستحى من الانتماء لدينه، ويرفض العمل تحت لوائه، وهذا الجيل الذى صنعه الغزو الثقافى هو الطابور الأول لا الطابور الخامس الذى ألحق بنا الهزائم، ونكس رؤوسنا فى كل ميدان..

ومن هنا يبدأ العمل الحقيقى للدعاة المسلمين، من هذا الخط تبدأ الجهود المضنية لإنقاذ أمة أمكن أعداءها أن يوجهوها ضد نفسها ورسالتها..

من هذا الخط ينبغى أن تبدأ حركة إحياء مستوعبة مستغرقة تصل حاضرنا بماضينا، وتعرفنا من نحن؟.

وما وظيفتنا فى الدنيا؟.

وماذا يراد بنا؟.

وماذا يراد منا؟.

إن العمل بالإسلام ليس كفالة لآخرتنا فقط بل هو ضمانة حياتنا الآن..

وإنها لحماقة كبرى أن نجهل رسالتنا التى اصطفانا الله لأدائها فنفقد مكانتنا الأدبية والمادية، ونخسر الأولى والآخرة جميعا..

* * *

ماذا يعنى قيام إسرائيل على أنقاضنا؟ يقول المؤرخ الإنجليزى «ويلز» إن اليهود اتخذوا الرب كنزا وادخروه لجنسهم!!

واليهود الذين فعلوا ذلك من عشرات القرون لم يتغير فسادهم النفسى ولا غرورهم الجنسى، ولقد كذبوا عيسى ومحمدا – وما زالوا يكذبونهما – لأنهما حاولا إصلاح هذا الفساد وقمع ذلك الغرور.

واستئناف اليهود أداء رسالتهم الأولى يعنى توطيد أركان الربا. والخنا، والتفرقة العنصرية، واستغلال الشعوب، كما يعنى تقطيع حبال الإنسانية مع الله، ونسيان اليوم الآخر، وإهمال الجوانب الروحية.

وذلك بداهة غير الإتيان على الرسالة الإسلامية من القواعد، وتمزيق الشعب العربى كل ممزق.

ونحن، شئنا أم أبينا، سندخل مع اليهود فى حرب بقاء أو فناء فإما انتصرنا عليهم وإما أتم أبناؤنا ما عجزنا عنه.

فإن نجح أبناؤنا فبها ونعمت، وإلا فعلى الأحفاد استئناف النضال إلى آخر الدهر.

ومع استعار هذه الحرب إلى ما شاء الله نريد أن نقول للمسلمين كلاما طويلا يدركون منه حقيقة رسالتهم وسر نكبتهم.

وهو كلام يعيدهم إلى الصراط المستقيم، ويقربهم من يوم النصر، ويشرح لهم سنن الله التى تنطبق عليهم وعلى غيرهم.

فإنه من المستحيل أن يرعانا الله إذا استبطنا نحن المسلمين خلائق اليهود الأقدمين مسخهم الله بمعاصيهم قردة وخنازير.

يستحيل أن يفعل الله هذا، والذى سيقع أن يلتقى اليهود بأشباههم ثم تعمل القوانين الطبيعية عملها فينتصر الأذكى على الأغبى والأدهى على الأجهل وذلك ما كان!!

ظننت لأول وهلة أن حديث القرآن الكريم عن بنى إسرائيل إنما كثر واستفاض بعد الهجرة النبوية أى بعد أن جمع اليهود والمسلمين وطن مشترك وجوار قريب.

ثم تبينت خطئى بعد أن تدبرت الوحى النازل فى مكة، فقد ظهر لى أنه تكرر ذكر بنى إسرائيل فى القرآن المكى تكرارا يشمل أغلب السور.

ولا عجب فقد ذكر اسم موسى فى القرآن نحو مائة وعشرين مرة، فما ذكر اسم نبى ولا ملك بهذه الكثرة ولا تحدث الوحى عن أمة من الأمم الأولى كما تحدث عن اليهود.

لقد جاء ذكرهم فى الأنعام والأعراف والإسراء وطه ويونس وهود وجميع الحواميم والطواسين وسور أخرى كثيرة.

والسور التى أحصيناها هنا مكية كلها، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ [النمل: ٧٦] آية من سورة النمل المكية...

وعجيب واليهود فى مكة نفر لا يؤبه لهم، أن يعنى القرآن بقصصهم كل هذه العناية.!

ولقد ساءلت نفسى: ما السبب فى هذا السرد المفصل لتاريخ بنى إسرائيل؟ فى مكة قبل المدينة؟

أهو تعريف المسلمين بحقيقة القوم الذين سيخالطونهم فيما بعد؟ إن هذه إجابة غير مقنعة.

وبعد تأمل غير قليل وجدت أن هذا التاريخ يحوى فى طياته العناصر الحقيقية لقيام الأمم، واستقلالها بأمورها، وازدهار حضارتها، كما يحوى العناصر الحقيقية لانهيار الأمم، وذهاب ريحها، واضمحلال أمرها.

والقصص القرآنى من أبرز الوسائل لتربية الأفراد والجماعات، وقد كان المسلمون المستضعفون فى مكه بحاجة إلى أن يعرفوا كيف تحول اليهود الاوائل من ذل هائل، إلى تحرر وتمكين، وما هى الفضائل التى لا بد من استجماعها كى تبلغ الأمم هذه الغاية الكريمة.

وقد تولت السور المكية هذا الشرح، ورأت القلة المستضعفة كيف تحول شعب تذبح صبيته، وتستحيا نسوته، إلى شعب مكين فى الأرض سيد على ظهرها!

وقد سئل ابن القيم: أيمكَّن للرجل أولا ثم يبتلى، أم يبتلى أولا ثم يمكَّن له؟ فقال: يبتلى أولا ثم يمكن له. وتلا قوله تعالى: ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ [السجدة: ٢٤].

والآية من سورة السجدة المكية، وهى تنبه إلى أن الصبر واليقين أسس الكفاح الطويل الذى يصل بالأمم المناضلة إلى هدفها.

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة الاجتماعية فى سورة الأعراف ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وهكذا تفاوتت مصاير أقوام كانت بداية أمرهم متفاوتة أبعد التفاوت فالفراعنة يصدرون الأوامر بالقتل والسبى، وحملة التوحيد يمضون فى الطريق المضرجة بالدماء والأحزان.

فأما الأولون فقد جنوا عاقبة جبروتهم صغارا وانهيارا: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ** ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢].

أما الآخرون المعتصمون بحبل الله المستمسكون بعروة الإيمان والتقوى، فقد ظفروا وعمروا: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

إلا أن البشر كثيرا ما ينجحون فى امتحانات البأساء والضراء حتى إذا وسع الله عليهم وغمرتهم نعماؤه، لم يحسنوا اجتياز الاختبار الجديد.

وما أكثر الذين حولتهم السلطة إلى جبابرة متسلطين، وحولتهم الثروة إلى طغاة مستكبرين.

وكان من المنتظر من بنى إسرائيل أن يستغلوا تمكين الله لهم فى نصرة دينه وإسعاد عباده، إلا أنهم سرعان ما فتكت بهم جراثيم السطوة والثروة فلم يفلتوا من الجزاء المعد لأمثالهم: ﴿ **سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [البقرة: ٢١١].

وقد بين الله للمسلمين مراحل هذا التبديل لنعمة الله، وأوضح مظاهره فى أخلاق القوم ومسالكهم، وما فعل جل شأنه ذلك إلا ليتجنب المسلمون المزالق

التى هوت بغيرهم، فإن الأمم لا تنكب جزافا، ولا تساق إليها المصائب خبط عشواء، ولكنها قوانين الله التى يخضع لها الأولون والآخرون ولا تقبل فيها شفاعة، ولا يقف حكمها استثناء.

إن الله نحى أبناء إسرائيل عن المنصب الذى لم يقدروه قدره، واستقدم العرب ليقودوا الإنسانية حيث عجز أبناء عمومتهم.

والغريب أن التوجيه الذى قيل لهؤلاء قيل لأولئك على تباعد الزمان بين الفريقين.

ففى لذعة من لذعات الألم صرخ بنو إسرائيل بنبيهم موسى قائلين: ﴿ **أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ترى أإذا تحررتم وسدتم تحسنون وتعدلون؟ أم ترتكبون الآثام وتستحلون المحارم؟

وبعد أعصار طوال جئ بالأمة الإسلامية بعد إقصاء بنى إسرائيل الذين أساءوا وظلموا، فماذا قال الله للأمة الجديدة؟ قال: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾

[يونس: ١٣، ١٤]

ذات القول الذى قيل لبنى إسرائيل .. من قرون سحيقة..!

فلنقارن بين تاريخ وتاريخ، وعوج وعوج، لنعرف ما لنا وما علينا.

وهل وفَّينا أم غدرنا، وهل ما أصابنا كان جور الليالى علينا؟ أم هو صنع أيدينا وحصاد ما غرسنا؟

إذا كلف الله أمة برسالة، فيجب أن تكون أحوالها الظاهرة والباطنة، ومعاملاتها الداخلية والخارجية صورة دقيقة لهذه الرسالة، صورة تحبب الآخرين فيها، وتغريهم باعتناقها.

أما أن ينفر الدعاة غيرهم من قبول الدعوة، فهذه هى الخيانة الكبرى!

وحملة الدعوة المخلصون يخشون أن يقع لهم أو يقع منهم ما يكون حجابا للآخرين أو عائقا عن تصديق دعوتهم.

وبهذا فسر العلماء قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ [الممتحنة: ٤، ٥].

وكيف يكون المؤمنون فتنة للذين كفروا؟

قال المفسرون: تصيبهم هزائم بسبب تقصيرهم فينظر الكفار إلى هذه الهزائم ويقولون: لو كانوا على حق ما مستهم تلك المصائب..

إن الدعاة الصادقين يخشون أشد الخشية أن يكونوا عبئا على رسالتهم أو سببا للتحول عنها..

ولعل هذا سر قول النبى ﷺ «من آذى ذميا كنت خصمه».

لماذا؟ لأن إيذاء الذمى ليس ظلما عاديا لواحد من الناس، كلا، إن الذمى المظلوم سوف يعتقد أن مصدر متاعبه هو دين المؤذى لا شخصه.

وبذلك يكره الدين وصاحبه وينصرف عن الدخول فيه، فتكون مساءة فردية سببا فى كفر أفراد وجماعات.

وبنو إسرائيل عاملوا الأمم الأخرى بأسلوب حافل بالدناءة والشره، وتواضعوا على أكل أموالهم، واستباحة حقوقهم، وافتروا على الله تعاليم يزعمون فيها أنه ليس عليهم من حرج فى هذا اللون من السلب والاختطاف.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: ٧٥، ٧٦]

ولن تنكب أمة رسالتها بأسوأ من صرف الناس عنها بهذه الطريقة الخسيسة.

ومن المؤسف أن المسلمين أثاروا أفق الدعوة الإسلامية ضبابا لا آخر له. بقولهم وعملهم على سواء.

فتخلفهم العلمى مزعج، وهبوطهم الخلقى شديد، وهذا وذاك صدود عن سبيل الله وفتنة كبرى..!!

وربما كان المسلمون فى معاملاتهم للأجانب عن دينهم وبلادهم أدنى إلى الشرف والكرم، بل ربما كانوا هم المغبونين المرجوحين..

بيد أن المسلمين بيقين لا يعطون صورة صحيحة ولا مقاربة للإسلام.

والشعوب المتطلعة إلى التفوق العلمى، والكرامة السياسية، والرفاهية الاجتماعية، والإنتاج الواسع، وغير ذلك من مظاهر الارتقاء الأدبى والمادى، فى قنوط تام من أن يكون المسلمون نماذج لهذا أو لشئ منه..!

وهذه الشعوب المتطلعة ترد الأمية الشاملة بين جماهير المسلمين، إلى الدين الذين توارثوه لا غير..!

فإذا كانت تعاليم الإسلام فى الأوج وكانت حال المسلمين فى الحضيض فإن هذا التناقض سيظل أبدا مثار ارتداد عن الإسلام، أو اتهام له..!

فهل تحسب أن الله يكرم أمة من الأمم بدين عظيم فتأبى هى الكرامة، ثم تعكس هوانها على دينها، وبعد ذلك تفلت من العقاب الأعلى..؟

كلا.. ومن هنا تتابعت السياط الكاوية على الأمة المفرطة، وتناولتها اللطمات من كل جانب..

وبلغ من إيجاع القدر للمفرطين أن اليهود كانوا هم الأداة التى ضربوا بها! كان المسلمين لم يضربوا بعصا، حين اخطأوا، لقد ضربوا هذه المرة بإخوان القردة ونعال الأرض..!

وما من منكر ارتكبه أبناء إسرائيل قديما واستحقوا به غضب الله إلا فعل المسلمون فى العصور الأخيرة مثله..!

وكتابنا شاهد علينا، فلننظر: ما الذى نسب إلى هؤلاء ولنقارن بين ما وقع منا، وما نسب إليهم..

أخذت المواثيق على بنى إسرائيل ألا يسفكوا الدماء، وألا يروعوا الآمنين وألا يشردوا رجلا من بيته، ويخرجوه من أهله.

ففعلوا ذلك كله، وفعلنا نحن مثله..

تأمل قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[البقرة: ٨٤، ٨٥]

وهذا الميثاق يتضمن - بلغة عصرنا - ضمانات لحقن الدماء، وحفظ الحريات، وإشاعة الطمأنينة.

والواقع أن القيمة العليا، أو الميزة العظمى للمجتمع المتدين أن يكون الإيمان مصدر أمان لكل فرد فيه، وأن يكون الإسلام مبعث سلامة وعافية ورضا..

أما أن يحيا الضعيف قلقا على حرماته، وأن يمشى فى البلاد خائفا يترقب، أما أن ينتفخ القوى ويبسط يده بالأذى دون رادع، أما أن يستطيع ملاك السلطة اختطاف الناس من بيوتهم أو بتعبير القرآن الكريم إخراجهم من ديارهم فهذا وضع لا يستقر معه إيمان.

ومن جوامع الكلم للنبى ﷺ «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن» أى أن الإيمان يغل اليد عن العدوان ويحجز عن الأذى.

وقد أخذ الله على بنى إسرائيل - قديما - أنه لما قامت لهم دولة، وملك بعضهم السلطة، هانت عليه أخوة الدين، فبغى، وأفسد، وقاتل، وأسر.

وقد نظرت إلى تاريخ المسلمين خصوصا هذه الأعصار، فوجدته نسخة أخرى من خلال اليهود الذين قبح الشارع صنعهم، وأوهى بها بناءهم.

حتى لقد خيل إلى أن الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط، دون غيرها من شعوب الأرض، استمتاعا بالحقوق الطبيعية للإنسان..

ولقد رأيت بعض المعارضين يفرون من وجوه الحكام إلى أوروبا، فإذا وراءهم من يقتلهم حيث لجأوا..!

فماذا يقول الأوروبيون الذين لا يدينون ديننا، فى مثل هذه التصرفات؟ وكيف يكون رأيهم فى الإسلام وأهله..؟

أذكر أنى منذ ربع قرن كتبت خاطرة بعنوان «حرب الحزازات وحرب العصابات» قارنت فيها بين ضحايانا من القتلى فى الخصومات العائلية وبين ضحايا الشعوب التى تقاتل من أجل حرياتها، فوجدت ضحايانا أكثر فى هذا الشقاق العائلى أو هذا النزاع الداخلى بين المسلمين!!

كان فينا قوله تعالى: ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ** ﴾ [الحشر: ١٤].

والأمة التى يغرى بعضها على بعض، تحرم عناية الله وبركته فى الأولى والآخرة.

* * *

وقد عرفنا كيف كرم الله بنى آدم، وكيف نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة ثم قال: «ما أطيبك وأطيب رائحتك وما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك، حرمة دمه وعرضه وماله».

إن هذه مقدسات، ومع ذلك فإن الجور استباحها.

ولما كان الإسلام كلاً لا يتجزأ، فإن الله عد استباحة بعض محارمه إضاعة لها كلها، كما عد الكفر ببعض أنبيائه كفرا بهم جميعا ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾

[البقرة: ٨٥، ٨٦]

والتلويح بعدم النصر إشارة إلى أن وسائل القسوة والبطش لا تكسب ذويها عزة فى الدنيا كما لا تكسبهم كرامة فى الدار الآخرة.

ومن خيانة الأمة لرسالتها أن تبرد عاطفتها تجاه حقوق الله، وأن تجعل حبها وبغضها مرتبطا بمصالحها لا بمبادئها.

ولو أنك رأيت امرءًا ينظر إلى علم بلاده وهو يمزق مثلا ثم لا يبالى، ما ترددت فى الحكم عليه بأنه خائن.

كذلك عندما ترى تابعا لدين ما يستهين بشعائر دينه فما يعنيه حلالها ولا حرامها، أنك ما تتردد فى اتهام عقيدته.

ويوجد ناس ما يسوءهم أبدا أن تعطل الصلاة، ولا أن تذبح الأعراض.

أهؤلاء بينهم وبين الله علاقة حسنة؟ مستحيل.

فإذا رأيتهم يصادقون تاركى الفرائض، وفاعلى المناكر، فهل يحسبون مع ذلك فى عداد المؤمنين؟ كلا..

عندما تحلل اليهود من دينهم على هذا النحو قال الله فيهم: ﴿ **تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

وظاهر أن تقاليد الخير تذبل وتتلاشى مع ضعف الحماس لها، وأن تقاليد الشر تنمو وترسو مع ضعف النكير عليها.

من أجل ذلك كانت الخصائص الأولى للأمة التى تحمل رسالة الإسلام: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وكانت الشروط الأولى لانتصارها أن يكون هذا النصر طريقا لتكوين بيئة تزدهر فيها العبادة، ويسودها التراحم وتستحكم فيها الرقابة على السلوك العام، وتظهر العلامات الحمراء والخضراء باستمرار فى طريق المبادئ والأخلاق، فما كان معروفا سمح له بالمرور، وإلا وقف فى مكانه وأغلقت فى وجهه كل الطرق!!

ذلك معنى قوله جل جلاله فى سرد مؤهلات النصر ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [الحج: ٤١].

فهل أرض الإسلام الآن على هذا المستوى الشريف الغيور اليقظ؟ أم أن العلل الخلقية والاجتماعية استوطنت بلادنا، وغفا الحراس عنها أو غطوا فى نوم عميق؟

فى اليهود الذين وبخهم الوحى الإلهى، وورد لعنهم على لسان المرسلين تقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

فهل هذا الوصف للمجتمع اليهودى اللعين وحده؟

أم تراه صادقا على مجتمعات شتى فى العواصم الإسلامية الصاخبة بالعصيان ودواعيه، الطافحة بجراءة الفساق، وجبن العلماء؟

أيحسب عاقل أن هذه أسباب النصر والتحرر؟

إن فى بلادنا من يدافع عن حرية الإلحاد، والسكر، والزنا، بلسان طلق، فإذا حدث عن حرية الإيمان والعفاف واليقظة الفكرية والأدبية امتعض واشمأز فهل يجر الهزيمة والعار إلا مثل هؤلاء الدواب؟؟

والله عز وجل ما أكرم أحداً قط لصورة اللحم والدم، إنما أكرم من عباده من زكت شمائلهم، وطهرت سرائرهم، وصلحت علانيتهم، وساروا فى أرضه دعاة له، يمجدون اسمه، وينفذون حكمه، ويرفعون علمه.

من استجمع هذه الخلال فهو سيد، وإن كان الجنس الأبيض أو الأصفر أو الأسود، فما للون ولا للنسب وزن عند الله.

وقد ذكرنا أن بنى إسرائيل كرموا ونعموا، يوم حملوا رسالة التوحيد، وتحملوا فى سبيلها العنت.

ثم زعموا بعد ذلك أن تكريمهم وتنعيمهم ليس لهذه الأسباب، إنما هو لأنه بينهم وبين الله صلة خاصة، جعلت جنسهم ممتازا على الخلق كافة.

بم هذا الامتياز؟ لقد قال الله لهم ولمن زعم زعمهم ﴿ **بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ** ﴾ [المائدة: ١٨].

والغريب أنه فى هذا العصر الأعجف فعل العرب مثل ما فعل اليهود الأقدمون، فقالوا: نحن عرب، عظمتنا ليست من رسالة الإسلام التى درسناها وطبقناها، لقد كنا أمة عريقة قبل أن يجئ الإسلام، ويمكن أن نكون أمة عريقة بعيدا عن تعاليم الإسلام!

ومن ثم قامت فى بلاد العرب نهضات تؤخر الدين وتقدم الجنس.

وهذا كلام من أبطل الباطل، فالعرب قبل الإسلام كانوا أمة نكرة، وبغير الإسلام سيكونون ذيلا للبشرية.

ولا أعرف أقواما يستحقون أن تملأ أفواههم بالبعر كهؤلاء العروبيين السخفاء.

إن نبذ الوحى الإلهى والافتخار بمكانة مفتعلة عند الله أو عند الناس أمر عابه الله على بنى إسرائيل، ويعيبه على العرب أبناء إسماعيل.

وفى هؤلاء وأولئك يمكن أن يساق قوله تعالى ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٣– ٢٥]

ومما يندى له جبين المسلم المخلص فى هذه الأيام السود أن اليهودى الأمريكى طرح جنسيته وجاء فلسطين باسم الدين.

أما العرب فيقال لهم: انسوا الدين واعتصموا بجنسيتكم العربية وحدها.

فماذا كانت النتيجة؟

أضاعت القومية العربية فلسطين، وظفر بها اليهود وأقاموا بها إسرائيل..

إن الكوارث العسكرية التى أصابتنا خلال هذه السنوات العشرين مزقت الملاءة المسدلة على جسم ممدد معتل تسرح الجراثيم القاتلة فى أوصاله طولا وعرضا.

وأظنه ظهر لكل ذى عينين أن الأمة الرائعة، الفارعة، التى طوقت بالإسلام فى المشارق والمغارب، قد استحالت أمة واهية الخلق، معوجة السلوك، ضعيفة الأخذ لربها ولنفسها، يفكر شبابها فى الملذات العاجلة، ويتسابق نساؤها وراء الزينات الفاضحة ويذهل حكامها عن شرائع الله وحدوده المقررة، وتتقطع علاقاتهم الروحية والاجتماعية به فما يصطفون له فى الصلوات الجامعة والعبادة الخاشعة.

أفهذه مؤهلات النصر المرتقب، ومستنزلات التأييد الأعلى من المعز المذل؟؟

وزاد الطين بلة أن الأمة التى استرخت قبضتها على تعاليم السماء عجزت كذلك أن تمسك بأسباب النجاح الدنيوى المعتاد.

فظلال فشلها الدينى أمتدت إلى شئونها الاقتصادية والفنية والإدارية فأصبح العمل الإنسانى الميسور للآخرين يخرج من بين يديها كما يخرج السقط من بطن الأم لا تعرف له ملامح، ولا يرجى له بقاء!!

وقد رمقت ببصر دامع وقلب مكلوم معركة سيناء الأخيرة.

كان قائد الأعداء واسع الخبرة والحيلة، وصل إلى منصب القيادة بعد ما دمى بدنه، وهو يصعد من السفح إلى القمة.

وكان كما ظهر من سيرته محدود الشهوة، ممدود الفكرة، خدوما لعقيدته، معتزا بدينه وكتابه، يقود جيشا على غراره إيمانا ونظاما.

أما نحن فقد اجتمعت فى قيادتنا نقائص كل الصفات التى توفرت لدى عدونا.

فهل كان الحكيم الخبير يلغى سننه الكونية وقوانينه الأزلية الأبدية فيجعل الفوضى تهزم النظام، والهوى يغلب العقيدة..؟

لقد انتهى العرب إلى النتيجة التى صنعوا هم مقدماتها، دينا ودنيا.

وسيبقون على خط الهزيمة ما بقيت تلك المقدمات موطدة لديهم.

ولقد كشفت هذه الهزائم – خلال السنوات العشرين، بل منذ وعد بلفور ١٩١٧ أن الأدوية التى وصفها الزعماء السياسيون للأمة المريضة، لم تكن أدوية شافية بل كانت سموما كاوية.. فإن هؤلاء الزعماء تشابهت قلوبهم فى مخاصمة الدين ونبذ شرائعه وفضائله .. ثم اختلفوا.

فمنهم من أعلن كفره بالإسلام عقيدة وشريعة وعبادة وتقاليد وأخلاقا.

ومنهم من طوى هذا الكفر فى صدره – من باب السياسة والكياسة وخداع الجماهير – ثم مضى فى طريقه يبعد الأمة عن دينها عمليا، فلا يرى نورا للإسلام إلا أطفأه ولا نشاطا إلا عوقه.

وخلال هذه المدة المتطاولة من ١٩١٧ إلى الآن استطاع اليهود – باسم الدين – أن يحولوا وعدا خياليا إلى حقيقة واقعة.

أما نحن الذين أبعدنا الإسلام عن المعركة، فقد ظللنا نتدحرج حتى بلغنا الوهدة التى سقطنا فيها. وها نحن أولاء نحاول جاهدين أن نخلص منها، وأن نقف على أقدامنا مرة أخرى.

ومن العجز أن نولول فى آثار نكبة لحقتنا، إلا أنه من العقل أن نحول دون تكرار هذه النكبات.

ومن العقل أن ننصح المخطئين، وأن نصدهم عن المضى فى طريق الخطأ القديم.

وإذا كانوا لا يحسنون إلا السير فى هذا الطريق فليذهبوا إلى حيث ألقت ويتركوا الأمة الإسلامية تعود إلى دينها، وتعالج قضاياها بمنطق العقيدة والجهاد.

ألا فليعلموا أنه عرض على اليهود وطن قومى لهم فى أوغندة، وفى مهاجر أخرى، فأبوا إلا فلسطين! لماذا؟

قالوا: هناك نداء الإيمان والذكريات والتاريخ الأول.

وانقاد الاستعمار لهم، ومنحهم أرضنا.

فلنتدبر هذا المنطق اليهودى، ولنقس به مقررات أحد المؤتمرات العربية التى

انعقدت من بضع سنين ورأت أن قضية فلسطين، قضية عربية بحتة وقالت للمسلمين فى كل مكان: لا شأن لكم بها..!!

أى لغو هذا وأى إفك؟؟

إن قضية فلسطين طول أدوار التاريخ قضية دينية والغزاة الجدد هجموا – كما زعموا – ملبين نداء الدين.

فلحساب من توصف قضية فلسطين بأنها عربية من شأن العرب؟

إن الذين فعلوا ذلك لم يحرفوا مفهوم القضية فقط، ولم يحرموها تأييد جماهير المسلمين فقط، بل فعلوا ذلك ليمسخوا معناها الحقيقى عند العرب أنفسهم ولينفسوا عن حقد ضد الإسلام تعلموه من زبانية الغزو الثقافى المسيطر على تيارات الفكر فى بلادنا.

إن عاطفة التدين تشد زناد النشاط الإنسانى بقوة، وتبلغ به أبعد الآماد.

وعندما يفقد المسلمون هذه العاطفة بتأثير الاستعمار الثقافى، فمعنى ذلك أن أمريكا أمدت اليهود لا بخمسين طائرة حديثة، بل بخمسمائة طائرة، لا بل بعدد لا يحصى من المقاتلات التى تدك حصون العرب، وترغم جيوشهم على الفرار.

إن فقدان العرب لعاطفة التدين وهم يقاتلون إسرائيل يساوى حصول إسرائيل على القنبلة الذرية!!

على أننا لا نطلب العودة إلى الإسلام لتكون هذه العودة إنقاذا لسمعة العرب السياسية والعسكرية، واستردادا لخسائر لم ينقطع إلى اليوم سيلها.

لا، إن هذه النتيجة المحققة سوف تجئ من تلقاء نفسها.

ولكننا نطلب العودة إلى الإسلام، لأن الإسلام حياتنا ورسالتنا، ومعاشنا ومعادنا، واختيار الله لنا، وتشريفه لماضينا ومستقبلنا!

فكيف نرتد على أعقابنا وننسى الرسالة العظمى التى آثر الله بها جنسنا ولغتنا، ورفع بها قدرنا وتاريخنا؟

ثم ماذا أفدنا من جحد الإسلام؟

الهزائم التي تسود بها الوجوه، والتى جعلت البغاث يستنسر بأرضنا والتى حقرتنا عند أنفسنا وعند الناس؟

إلا أنه لا يعترض العودة إلى الإسلام إلا أحد رجلين:

مرتد يكره هذا الدين، ويميل بهواه مع أعدائه الكثيرين فى الشرق والغرب.

أو جاهل يظن التمسك بالإسلام رجعية توصم بالتعصب، ويرى فى القومية المجردة طريقا لبناء الدولة الحديثة بعيدا عن الطائفية وشتى التهم.

فها نحن أولاء، ندور في عاصفة تريد اقتلاع جذورنا، ومحو أوطاننا فماذا كسبنا من هذه القومية الكافرة؟

لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .. لا نجاة للعرب إلا إذا القوا أنفسهم فى أحضان الإسلام.

* * *

ونعود إلى ما يزعمه اليهود من أن لهم حقا تاريخيا في هذه المناطق..

من هو إسرائيل الذى يتمسحون باسمه؟

لقد كان رجلا صالحا يحيا مع أولاده فى بادية الشام، كان رب اسرة كبيرة من هذه الأسر التى تنتظر رزق الله فى أرضه الواسعة.

لم يكن صاحب إقطاعات ضخمة، ولا سلطة معروفة، وما يزيد عن غيره من البدو إلا بدعوة التوحيد التي حرص عليها.

وكان أولاده حاشا بوسف الصديق أصحاب خلق ردئ، وغيره ذميمة!

وعندما أجدبت البادية وتعرض سكانها للمجاعة استضاف يوسف أباه وأخوته ليجدوا في مصر كهفا يأوون إليه ويطعمون من خيره.

وشكرا لهذه النعمة، وتنويها بحقها، وتوديعا للماضي المؤسف جاء على لسان يوسف لأبويه وأخوته ﴿ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٩] وقوله كذلك ﴿ **وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي** ﴾ [يوسف ١٠٠].

فهل إذا استضافت مصر أسرة محرجة كان ذلك صك عبودية لمصر؟ أى ضيافة فى الدنيا تتبعها هذه المزاعم؟

ما كان إسرائيل صاحب حقوق فى بادية الشام، ولا كان صاحب حقوق فى وادى النيل.

ثم نمت العائلة الضعيفة ووقعت بينها وبين المصريين جفوة لم تتبين أسبابها بجلاء، هل ترجع إلى أن أفرادها كرهوا الاندماج فى الشعب المصرى؟ أو ترجع إلى أن أفرادها لم يشتركوا فى مقاومة الغزاة الذين هاجموا مصر؟ أم كلا الأمرين؟

إلا أن هذه الجفوة حولها فرعون إلى حرب إبادة لا عدل فيها ولا رحمة.

وقضت حكمة الله ألا يتجاور الشعبان فى أرض واحدة فبعث موسى بطلب معقول، هو السماح لبنى إسرائيل بمغادرة البلاد فناشد موسى فرعون أن يقبل ذلك ﴿ **فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ** ﴾ [طه: ٤٧].

إلا أن جنون العظمة استبد بفرعون، وأبى الأحمق إلا أن يدخل فى عناد مع القدر، انتهى آخر الأمر بمصرعه.

ونجا بنو إسرائيل من العذاب المهين وأراد موسى أن يدخل بهم فلسطين ليجدوا فيها الأمن الذى ينشدون، وكانت فلسطين عصرئذ مسكونة بنفر من الجبابرة العتاة، وما كاد نبؤهم يقرع مسامع بنى إسرائيل حتى ضجوا من الفزع، وأبوا إباء تاما أن يجيبوا موسى إلى طلبه.

ومنذ ترك موسى وقومه مصر أخذت المخازى النفسية لليهود تتكشف ويظهر ان هذه المخازى كانت مطوية تحت ثياب الذل والمسكنة، فلما شعروا بالتحرر أخذوا يجمحون يمنة ويسرة دون ضابط.

وكان موسى أول من تعرض لأذى قومه، وسوء عشرتهم، واستجابتهم وتقديرهم ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [الصف: ٥].

وقضت حكمة الله أن يؤدب بنى إسرائيل فأتاههم فى صحراء سيناء أربعين سنة مات خلالها هذا النبى الكريم وهو ضائق بقومه، وهلكت فى التيه الأجيال التى لا تصلح للحياة والجهاد، ونبت جيل آخر كتب الله له أن يدخل فلسطين.

نعم دخلها لينفذ فيها سنة كونية لم يمض كبير وقت بعدها حتى تطبق عليه نفسه هذه السنة الصارمة، فتنفذ فيه كما نفذت فيمن سبقه.

إن الجبابرة السابقين احتلت أرضهم وغلبوا على امرهم، ثم جاء بنو إسرائيل من بعدهم ليقيموا حكما دينيا صالحا يوفر لهم ولغيرهم الأمان والإيمان.

وكانت التوراة بين أصحابها دينا ودولة وكان لهم فيها هدى ونور.

فهل أقام بنو إسرائيل ذلك المجتمع المنشود، وأخلصوا لله فيه؟.

إنهم سرعان ما فسقوا عن أمر الله واستشرت فيهم العلل التى أومأنا إليها آنفا.

فإذا بختنصر وقومه يهجمون على المتدينين الكذبة، ويدمرون هيكلهم، ويسوقون الألوف المؤلفة من شبابهم أسرى إلى «بابل» وانهارت إسرائيل ولما يمض على تكوينها زمن يذكر.

ومنح الله بنى إسرائيل فرصة ثانية، فتحرروا من الأسر البابلى واستردوا قواهم الضائعة، وأقاموا الهيكل، واستأنفوا تاريخهم، بيد أن العلل الكامنة فى دمائهم لم تفارقهم، وتفاقمت شرورهم بالعدوان على رسل الله واستباحة دمائهم.

وقد أنهى الرومان الحكم الإسرائيلى الثانى، وأحتلوا فلسطين كلها..

فكم تظن مدة الحكمين اليهوديين لفلسطين؟

قرابة مائة وثلاثين سنة!!

ولم يكن هذا الانهيار السياسى ختام الوجود الدينى لليهود، بل كان ختام وجودهم الدينى كما ذكرنا تكذيبهم لرسالة عيسى ابن مريم فإن الله جل وعز نقل النبوة بعدها إلى العرب.

وبذلك انتهى دور بنى إسرائيل فى توجيه الضمير البشرى.

هل حكم بنى إسرائيل لبقعة ما فى الشرق الأوسط قرنا أو قرنين بعطيهم فيها حقوقا أبدية؟

اللهم، لا..!!

إن عمر بن الخطاب لما تسلم القدس من بطريقها المسيحى اشترط عليه هذا البطريق الناصح ألا يدخل اليهود القدس!!

وليتنا تذكرنا هذا الشرط ولكننا ننسى.

وقد عرف المؤرخون أن تسامحنا الدينى خلال تاريخنا الطويل تحول إلى غفلة دفعنا ثمنها فادحا.

على أن اليهود أنفسهم يجب أن يعلموا أن ما يدَّعون من حق فى فلسطين لا يقوم على سند دينى محترم، فهم لم يغيروا شيئا من خلائقهم التى أحلت بهم سخط الله فى الدنيا والآخرة..

هم يعلمون أن لعنة الله تبعتهم وهم يفرون من بلد إلى بلد، فماذا صنعوا للخلاص منها؟

لا شئ، إنهم وراء جميع الأزمات الروحية والمادية التى تدوخ الجنس البشرى، وتميل به عن الصراط المستقيم.

والذين يختبئون وراء إسرائيل يعلمون أن الوجه الدينى لربيبتهم يخفى وراءه نيات سوداء للبشرية جمعاء.

والحق أن إسرائيل تجسيد لكل الأحقاد التى طفحت ضد العروبة والإسلام.

وأن الأساس الوحيد لقيامها لا يلتمس فى المشارق والمغارب، وإنما يلتمس فى منطقة الشرق الأوسط هذه، أعنى قلب الأمة العربية.

إن تفريط العرب فى الإسلام، ونسيانهم لرسالتهم العظمى، وتحولهم إلى شعرب متعطلة متبلدة هو الذى خلق هذه المأساة.

إننا لم نحف الله فخوفنا الله بذباب الأرض.

وجعل الأقربين والأبعدين ينظرون بشماتة وازدراء إلى جراحاتنا التى لا ينقطع لها نزيف.

أن عشرات الدول الكبرى والصغرى نظرت إلى اللص يسطو على البيت، فانضمت إليه ضد رب البيت الذى شرع يدافع بدهشة ولهفة عن مسكنه!!

إنه يدافع منتظرا أى عون إنسانى من أولئك المتفرجين على المعركة.

وهيهات..

ولو تسللت إلى ضمائر هؤلاء المشاركين فى الهيئة الدولية لوجدتهم يقولون: هذا اللص أولى من الحيوان الذى يقطن الدار!

إنها داره ولكنه لا يستحقها..!

تلك هى سريرة عدد كبير من الدول التى تسخر من ضعفنا، وبالتالى تحكم علينا لا لنا.

والسبب؟

السبب نحن لا غيرنا، وذاك أرفق عقاب ينزله الله بأمة تخلت عن دينه، وأدارت ظهرها لتعاليمه..!!

وسوف يبقى الوضع كذلك حتى نذكر أننا مسلمون.

وأن الإسلام يفرض علينا تشكيل أوضاعنا الخلقية والفكرية والاجتماعية والتشريعية على نحو آخر.

عندئذ تطلع الشمس وتختفى الأشباح [1]..

* * *

---

(١) يمثل هذا الفصل شطر المحاضرة التى ألقيتها فى دار الإصلاح الاجتماعى بالكويت فى رمضان ١٣٨٨، أما شطرها الآخر فقد وزعته على بعض الفصول الأخرى اللاحقة.

وجمعية الإصلاح بالكويت تنهض بعبء جليل فى خدمة الدعوة الإسلامية وتقف بصلابة فى وجه التيارات المنحرفة، أنجح الله جهدها وسدد خطاها..

obeikandl.com